الأمة العربية
ELOUMMA ELARABIA
من أجل إعلام حر قوي و مستحق

إعداد:
دليلة قدور

جدارية
مأمون أحمد مصطفى

الجزء الرابع

هل كان عليَّ أن أخدع ذاتي وذواتيٍ من أجل اكتمال يوم الزفاف؟ هل كان عليٍّ أن أنقش الألم الحارق على مسيرة روحي؟ وهل كان عليٍّ أن أزج بذواتي كلها في زجاجة تحمل مياه نار مذيبة؟ وهل كان عليٍّ أن أصفد الأيام والذكريات والألحان والأغاني والأهازيج الوردية بأصفاد التخلي عن كل شيء ليقال بأني تزوجت؟

قلت للألم يوما حين جاءني يبكي شكوى مما ألحقت فيه من ألم: رفقا يا صديق عمري ورفيق دربي وصنو ذواتي وأرواحي، رفقا فأنت لا شيء فيك من الألم لو أردت الآن أن أحشوك بالألم، رفقا، ودعنا نغلق صفحة الصفعة التي مزقتني ونثرتني هباء، صفعة اقتراني بطلاق النجوم والكواكب، طلاق الملح، وخيط الماء الذي كان يتسلل من شق صخرة ليمنحني شهدا انقطع يوم طلاقي منه.رفقا، ولنغلق هذه الصفحة، صفحة طلاقي من الحبق يوم اقترنت بالملموس.

وتعال نتحدث عن الكتب، التي تزوجتها، تماما كما تزوجت الملموس، لكنني كنت أكرهها عشقا، وأمقتها ولها، وأحقد عليها طيبة لا طيبة بعدها، وأحمل كل ضغائن الأرض حبا لا يضاهيه حب، حتى وصلت الى اعتقاد جازم بأن مكوناتي لم تكن لحما ودما، أوردة وشرايين، بل ورق وحبر، وفواصل ونقاط وعلامات تعجب.كنت أعلم ولا أعلم، بأني مقسوم إلى واقع لا أشعر فيه بشيء، وبعالم مكتظ فيه كل ما أريد وما أتمنى، فيه من السهول التي عرفت أشباه وأشباه، ومن الجبال مثيل ومثيل، ومن الرؤى المغطسة بروائح الليمون تقاربا وتعاضدا، بل وصلت إلى يقين مغروس بيقين، بأن الحياة كلها كواقع وخيال، كحلم ورؤيا، كضباب ونقاء، كظلام ونور، كلها تتمحور في الكتب، في الكلمات التي تتسرب كمادة مخدرة إلى عروقي لتخلط بدمائي وروحي، فأدمن عليها، وأعاود الإدمان، كحلقة لا تنفك تنقلني من إدمان إلى إدمان.عشت حيوات طويلة، وهذا كلام لا يشبه الكلام، ووصف لا يتشابه مع الأوصاف، والمفردات التي ستشكل الكلام والمفردات والانتقاءات والتحسينات والتجميلات، هي مفردات خارجة من إطار الرؤيا والبصر، ساكنة أعماق البصر البصيرة، وحتى هذه لا تستطيع بما تملك من إمكانات وقدرات وطاقات ومحتويات وخفايا أن تصل إلى أول حرف أو أول مفردة أو أول جملة قرأتها فحملتني على أجنحة من خيال لا يتشابه مع بساط الريح أو مع مفتاح علاء الدين وكنوز علي بابا.

في الكتب شاهدت زهر اللوز بطريقة تتعالى عن الوصف أو التشبيه، كذلك الحبق والأقحوان، حتى شجر الليمون والبرتقال، السرو والبلوط والصنوبر والعرعر، الصخر والوديان والجبال والضباب والغيوم، كلها كانت تتشكل بأعماقي بصور تهز ذرات الذات ذرة فذرة، حتى يتحول الاهتزاز إلى توحد متماسك متعاقد مع لذات تتوالد من لذات، وسعادات تتوالد من سعادات، وحبور يتناسل مع حبور، لكنها جميعا لا تلتقي مع اللذة أو السعادة أو الحبور المعروف والمعهود، هي شيء أخر يزدحم فيه المجهول بتوقد النور والضوء، ويختلط فيه الغيب بانفجارات الأكوان النووية المتسلسلة لتنتج انشطارات عن انشطارات، وانفجارات عن انفجارات، فتهتز مساحات في أكوان لا تحد ولا تؤطر، فتبعث اشعاعات واشعاعات، تكاد من قوة وهجها أن تمتص الوجود امتصاص طفل للحليب من نهد أم كريم، هي أشياء من السحر الذي يُعجز السحر، ومن المستحيل الذي يقهر المستحيلات، ومن المجهول الذي لا يمكن التنبؤ أو التحقق منه ماضيا وحاضرا ومستقبلا، ومن الغيب الذي يستعصي على غيب الغيب.يومها كنت محشوا إلى حد الغرغرة وما فوقها وما تحتها بكل ما سبق، فرأيت نفسي تتميز وتتمايز عن كثير من مكونات الوجود، وهكذا كانت مكونات الوجود تراني، فما أمسكت يوما غصنا إلا ورجفت راحتي كما ترجف ذاتي، فالغصن لم يكن أبدا بيدي حالة من جمال أو قبح أو نعومة أو شوك، كان يعني انفصاله عن الأم، عن الجذر، فأفكر بالأم وما حل بها من ألم ووجع، وبالغصن وما حل به من فراق وهزيمة وحسرة ولوعة، وكنت أرى عيون الأم وهي تعتصر الرؤى كي ترقب لحظات فرعها وهي تتقدم نحن الجفاف والدواء، وأراقب عيني الغصن وهما تحاولان انتزاع الألم والوجع من عيني الأم، وهكذا، أظل معلقا بين خليط تتناسله الهنيهات والثواني والأنفاس والحسرات، إلى أن يتحول الغصن إلى هباء يختلط في الأرض، يصبح جمعه أو معرفة مكانه قمة مستحيل المستحيلات، فأنظر إلى الأم وهي تتعرى حدادا لتصبح كل مكوناتها جافة، إلا شيء خفي لا يراه الناس، لكنني أراه، الرحم المتخم بنذور تستعد لدفع حياتها كما الغصن الذي اختفى لإنهاض الأم وكسوها بخضرة يانعة تضج بالنضوج والاكتمال، فتأتي الازهار خاضعة ذليلة لتتوج الأم بأشياء تخص النحل والنمل ومئات الملايين من الحشرات والحيوانات وحتى ذرات الوجود التي لا تدركها أبصار أو رؤى.

كنت أسير بين المطر بحذر الفضاء والحرارة والشموس، فلا أبتل، وأبتل حين أقرر التخلي عن الحذر، وكنت أخطو خطواتي بين السنة الشمس بتؤدة وخبرة، فلا يلمسني خيط من خيوطها أو شعاع من أشعتها، وكانت تلمسني كل الخيوط والأشعة حين يداهمني كسل الوسن وسنة النوم، فألجأ للمطر المخزن بقاع أرض لأستمطره برودة ترج كياني بين حرارة متشبثة وبرودة مفاجئة، فاستل لذة مبهمة من صراع عنيف بين حرارة وبرودة تدور رحاها فوق مسامتي دون أن أنزف ألما أو فجيعة أو هزيمة، بل لذة موصولة بلذة، وغبطة موصولة بغبطة.

سرت في الوديان مسيرات طويلة، لأجيال وأجيال، دون الانزلاق أو الوقوع بفخ صخرة تتكوم فوقها الطحالب لتخفي الانزلاق عين العين، وقطعت البراري والدغل والغابات، مررت بين الأسود والفهود والضباع، تجاوزت الأفاعي والحيات والعقارب، تعاقدت مع الممرات والحفر والجداول والأنهار، انسللت من بين السموم المنثورة هنا وهناك، كانسلال نسمات شاردة من وهج يكاد يخض الحياة والروح، و قطعت الصحارى صحراء خلف صحراء، بحركات دائرية وافقية، تجاوزت الحرارة، لاحقت السراب ملاحقة المتيقن المطمئن، شربت من سويقات وجذور موزعة هنا وهناك، وأكلت من بقايا فرائس طازجة تركتها مخلوقات مجهولة، وارتويت من الأنداء ارتواء يفوق الارتواء من أنهار وجداول ووديان، والتحمت مع الصبار التحام القدرة والاقتدار، انتقلت بلمح بصر، أو أقل قليلا، لأجوب القطبين، حيث الثلوج والجليد والتجلد المتواصل، غزوت البرودة وتجاوزت قدرتها، امتصصتها، أرهقتها بما خزنت من الصحارى، عايشت الدببة والذئاب، أكلت معهم فرائسهم، ونبشت الجليد من أجل شربة ماء، عرفت الفروق بين مياه ومياه، وتحسست بجسدي فروق التناقض في التكون والتكوين، وقفت أمام وردة شقت الجليد وتمردت عليه لتضفي على الامتدادات البيضاء نقطة اختلاف لا تخطئها عين مخلوق من المخلوقات مهما دق بصره أو بلغ مدى عماه.

تنقلت بين أقوام وشعوب، بين أمم وحضارات، بين أمصار ومدنيات، بين مغلوبين مقهورين وغالبين وقاهرين، بين مظلومين وظالمين، بين روائع لا تحدها روائع، وبين مسوخ تتوالد مسوخ، مررت بين أمنيات وأحلام مصفوعة، وبين أمان وأحلام مغلولة، بين حسرات وأنات، وبين رجاء متلحف برجاء، بين عيون أرهقها النظر وحطمتها الرؤى، فلا تكاد تستبين أهي مفتوحة أم مغلقة، بكيت حتى احتمى البكاء برحمة شهامتي خوفا على ذاته من الزوال، وضحكت حتى التجأ الضحك إلى وقاري كي لا ينضب الضحك من الوجود، ووقفت بين مكونات البكاء ولواحقه وتأثيراته، وبين مكونات الضحك وتوابعه ونتائجه، حتى ظننت نفسي يوما بأني في هذا وذاك شيء لا بد من وجوده لتكتمل الدموع وليكتمل الضحك بكاء واستمرارية.

وكما تزاوجت مع الأرض قبل، تزاوجت مع الحروف، أكان يكفيني عروس واحدة؟ سؤال ظل يلاحقني، يطارني، كوحش خارج من الخيال فقط ليبقي مطاردته تتوسد لهاثي وانقطاع أنفاسي، لكني أقول اليوم، بأن الكتب منحتني مئات الملايين من الزوجات، وكن كما كان زهر اللوز والليمون ورائحة الظل وأنفاس الأرض الخارجة بشهيق يكاد يحز الروح بعد سقوط الماء عليها وهي مشققة من الجفاف القائد للموت والفناء زوجاتي، جاءت الكتب، لتثبت أن زوجاتي كلهن، كن حوريات وكواعب، يملكن عذرية تتخفى في عذرية، متجددات، مصنوعات من الخيال، من العقل والعاطفة، من الالتواء الفاصل بين الممكن والمستحيل، من الشموس والأقمار المعجونة بعطر الليمون المعتق بعطر البرتقال والنرجس، منحوتات من بياض زهر اللوز وزهر النرجس وزهر الرمان والخوخ والدراق. كن عذراوات ليبقين عذراوات، وكن طوع إشارة من اشاراتي، فبغياب الزهر أمام الفصول، كان التقطير يمنحني القدرة على الاغتسال بعطر الأزهار وقت أشاء وكيف أشاء.

-يتبع-